جامعة دمشق – كلية الآداب – قسم الفلسفة

محاضرة فكر عربي معاصر – دراسات عليا

محاضرة (٣ + ٤)

عنوان المحاضرة: الفكر الحديث

محاضرة ٢٠٢٠/٤/١

محاضرة ٢٠٢٠/٤/٨

أستاذ المقرر: أ.د. فارس النداف

كما أن مسألة " الدولة اثيرت عند المتكلمين وفي الفقه من حيث حقوق الرعية وحقوق السلطان، شرعية الحكم، حرية الفرد / ومركزية الدولة / الدولة المثلى المدينة الفاضلة للفارابي " الخ ...

ذلك أنه إذا كانت الأمة أمراً مسلماً به/فالدولة ليست كذلك / انها تتبدل باستمرار وعندما يقيس ابن خلدون بالاستناد إلى استقرائه للتاريخ العربي، عمرها يجد أنه لا يتجاوز الاجيال الثلاثة ، أي /120/ مائة وعشرين سنة .

أخلص مما تقدم إلى ان المشكلات التي تعثر فيها الفكر العربي ثلاثة:

أولاً : على الصعيد الاجتماعي : الانتقال من البداوة إلى الحضر.

ثانياً : على الصعيد السياسي : الدولة : إن الفكر العربي ينتقل من الأمة إلى الدولة

فلا يعثر على هذه بعكس الفكر الاغريقي – الغربي الذي ينتقل من الدولة إلى الأمة فتفوته هذه.

ثالثاً : على الصعيد النظري : الحرية والجبر وهذه مشكلة دينية فلسفية لا مجال

لمعالجتها هنا. المعتزلة، والاشاعرة

ب- **<u>الفكر الحديث</u>** : " محمد علي 1805- 1848"

بدأ الفكر العربي يستيقظ من سباته الطويل (خمسة قرون تقريباً) مع الغزو البونابرتي لمصر في أوائل القرن التاسع عشر، وبدت طلائعه في أواسط القرن ذاته عندما استقل محمد علي باشا بالقطر المصري عن السلطة العثمانية وأخذ ينظم الدولة على اسس حديثة فيشجع التعليم والبعثات العلمية كما أخذ يشجع التجارة والصناعة,

وانبثقت اليقظة بعدها من مصر حيث بدأت الثورة على الاحتلال الانكليزي مع عرابي باشا وانتقلت إلى المشرق العربي مع بدء الثورة على الحكم العثماني في أوائل القرن العشرين وعلى الاحتلال الفرنسي والانكليزي بين الحربين العالميتين، كما انتقلت إلى المغرب العربي بعيد الحرب العالمية الثانية مع الثورة على الاحتلال الفرنسي والاسباني وها هي اليوم تنتقل إلى الجنوب العربي حيث التمرد على الاستعمار والرجعية . ثم انتقلت إلى فلسطين ويمر الفكر العربي، خلال يقظته هذه بثلاث مراحل متواجدة من الأصل هي : الليبرالية المنبثقة عن الثورة الفرنسية

وأفكارها في تحرير الشعب والوطن ومن ثم القومية أي تنظم الأمة على غرار القوميات الغربية الحديثة، وأخيراً الاشتراكية المستمدة من الفكر الماركسي.

كما أنه انقسم من الاصل إلى خطين متعارضين ازداد التعارض بينهما إلى حد التنافر الكلي مع النضال ضد الامبريالية : الخط المحافظ / الخط المجدد / الخط الرجعي والخط التقدمي .

فلنتبع خط التطور هذا، فهو الاطار العريض للفكر العربي في وضعه الراهن، وتعميقه هو تعميق الفكر والنضال في الوقت ذاته.

المرحلة الليبرالية :

قلت أن هذه المراحل متواجدة فالذي يميز الواحدة من الاخرى هو هيمنة فكرة على الاخرى.

ففي المرحلة الأولى كانت الاهداف هي التالية:

1- في المجال السياسي : أنشاء دولة دستورية برلمانية تضمن للوطن استقلاله وللمواطن حرمته وحريته. ومن المعلوم أن " إرادة " السلطان كانت في السلطنة العثمانية فوق القوانين .
2- في المجال الاجتماعي: حرية الصحافة والنشر، حرية الاجتماع وتأليف الأحزاب حرية المعتقد .
3- عللى الصعيد الاقتصادي: تكوين رأسمال وطني، وكان الرائد هنا طلعت حرب باشا مؤسس (بنك مصر) أول مصرف عربي حديث. ومع أن طلعت حرب باشا كان مسلماً ورعا فقد اباح الفائدة بحدود (2,5%) .

ونلاحظ في هذه المرحلة ثلاثة اتجاهات فكرية :

الأول : الاتجاه التقدمي، ويمثله اسماعيل مظهر الذي ترجم داروين(نظرية النشوء والارتقاء) وروج له وسلامة موسى الذي كان أول كاتب عربي دعا لاقتباس الفكر

الماركسي، وشبلي الشميل الذي ترجم الفكر المادي لبوخنر وعلق عليه.

الثاني : الاتجاه الديني، ويمثله في مصر جمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبدو

وكانا يدعوان إلى الجامعة الإسلامية على أنها أداة التحرر، في سورية عبد الرحمن الكواكبي مؤلف " طباع الاستبداد " و: أم القرى " .

الثالث : ليبرالي – ديني، يمثله رفاعة رافع الطهطاوي وتلاميذه.

ويبدو أن هذا الرجل كان بالنسبة لمصر، أبعد المفكرين نظراً وأكثرهم تأثيراً في الفكر العربي، إذ أنه بشر بعقلانية معتدلة تستعيد الماضي في إطار الحضارة الحديثة وربما أن أهم ممثلي الجيل الثاني (من أمثال طة حسين والعقاد) من مدرسته والطهطاوي هو صاحب التمييز المعروف بين الوطنية والقومية كي يضمن استقلال مصر وفي الوقت ذاته لا يثير غضب السلطة العثمانية التي كانت في ريبة من امر السلالة الخديوية .

ونلاحظ الاتجاهات الثلاثة بعيد استقلال مصر، وقد بدت أكثر وضوحاً عند تكوين الاحزاب السياسية فهناك حزب الوفد (سعد زغلول وأحمد لطفي السيد) الذي يمثل جانب الاعتدال، والحزب الوطني(مصطفى كامل) الذي كان ضد الاقتباس من الحضارة الغربية ومن بعده حزب الاخوان المسلمين الذي اتخذ موقفاً رجعيا صريحاً " حسن البنا" .

ونجد مقابلاً لهذه الاتجاهات في سورية بين الحربين وبعدهما في الحرب الوطني وحزب الاخوان المسلمين وحزب البعث العربي الاشتراكي .

كما نجد الاتجاهات ذاتها بدرجات ونسب متفاوتة في عدد كبير من الاقطار العربية الاخرى.

المرحلة القومية :

ويبدأ الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما أخذ العرب يعارضون الخلافة العثمانية وبعدها الحركة القومية التركية (حزب تركيا الفتاة) بفكرة القومية العربية القائمة على وحدة اللغة والتاريخ، وعلى المصير المشترك.

في هذه المرحلة انتقل مركز الثقل الفكري من مصر إلى سورية الطبيعية (سورية – لبنان – فلسطين) حيث نشأت الفكرة القومية وامتدت إلى العراق، وبعده إلى مصر مع ثورة يوليو 1952 بقيادة جمال عبد الناصر، ومن ثم أخذت تنتقل تدريجياً وما تزال إلى بقية الأقطار العربية .

وبوسعنا أن نقسم هذه المرحلة إلى ثلاث :

الأولى: تمتد إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، إذ تألفت الأحزاب والجمعيات السرية، كلها تدعو إلى الثورة على الحكم العثماني، وإلى إقامة علاقات وثيقة مع الغرب، وكانت تمثلها ثورة الشريف حسين 1916 في الحجاز وشعارها وحدة العرب.

الثانية : في فترة مابين الحربين . فعندما نكص الحلفاء بوعدهم فاحتلوا الوطن العربي وتقاسموه واستعمروه أخذت الاحزاب السياسية تدعو إلى الاستقلال الكامل. وعندها نشأت تعارضات جديدة تبعاً لتأثير الحزب بهذه الايديولوجيا أوتلك. فهناك أحزاب نازية شوفينية وقطرية (الحزب السوري القومي، حزب مصر) وأحزاب ذات اتجاه ديني رجعي امتدت من مصر إلى عدد من الأقطار العربية (الأخوان المسلمون) وأحزاب قومية منها مثلاً عصبة العمل القومي، وأهمها حركة زكي الارسوزي التي لم تعمر طويلاً بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية.

الثالثة : فترة الحرب العالمية الثانية التي بدأت خلال الفترة القومية بالتبلور مع قيام حزب البعث العربي الاشتراكي.

المرحلة الاشتراكية:

والفكر الاشتراكي هو أيضاً يرقى إلى أوائل القرن العشرين، أن لم أقل إلى أواخر القرن التاسع عشر. كما ان الحركات اليسارية ترقى إلى بعيد الحرب العالمية الأولى .

ولكن يقظة الجماهير العربية وطرح المشكلة الاجتماعية بكل ابعادها خلال الحرب العالمية الثانية وبعيدها، بعيد النكبة والاحتلال الصهيوني لفلسطين. عندها بدأت نهاية الفكر الليبرالي- البرلماني وبدأت الرجعية بالانحسار، أقله في بعض الاقطار ليحل محلها الفكر القومي (أمة واحدة) الاشتراكي (الاشتراكية العلمية) هي مرحلة الثورات في مصر وسورية والعراق والجزائر واليمن وليبيا وتكون حركة الفداء، مرحلة الوحدة الأولى والثانية .

مرحلة الديمقراطية الشعبية :

وأخيراً مرحلة الاختبار الحاسم لفكرنا ولسياستنا فالمعركة بيننا وبين الامبريالية والصهيونية لا هوادة فيها، ولايمكن التراجع عنها.

فالسؤال المطروح هو أما أن نكون على مستوى المعركة الحاسمة أو لا نكون الوجود أو اللاأوجود .

سورية القلقة :

عاش الفكر العربي في سورية مرحلته الرومنتيكية خلال الحرب العالمية الثانية: مرحلة القلق وحيرة، حماس وتطلع، بين الخيال والواقع، بين العاطفة والعقل. فلمعركة، في ابعادها الثلاثة، المحلية والعربية والعالمية، حاسمة. وكل شيء – النظر والعمل، الدولة والأمة الحاضر والماضي والمستقبل، الوجود واللاوجود- مطروح على بساط البحث، وكأن العالم سيولد من جديد في يقظة أفقها مجهول، وخطوطها الأولى ما أن تبدو حتى تتلاشى.

الندوات تعقد بمناسبة وبدون مناسبة، اين اتفق، في المقهى، في الشارع في الحانوت، عند الجار، في باحة الدرس في الصف... بين الضابط والمدني، بين الفلاح والتاجر، بين الطالب واستاذه... ومع أول إنسان تلقاه في الطريق. فما أن يجتمع اثنان حتى يبدأ النقاش، وسرعان ما يحتدم. وجهات النظر تتلاقى وتتقاطع لتفترق ثم تلاقى من جديد وتختلف من جديد، وهكذا إلى ما لانهاية.

الاستعمار الانكليزي في الاقطار المجاورة (فلسطين – العراق) يحاصر الاستعمار الفرنسي في داخل القطر. والفاشية تتحفز للوثوب على المشرق العربي من الجنوب عبر المغرب العربي، ومن الشمال عبر تركيا. والحلفاء يحاصرون الفاشية في أضخم ملحمة خبرها تاريخ الإنسانية .

الكل يتساءلون عن المصير ،وكأنه سيهبط في غفلة عنهم: التاجر يصغي إلى جاره أكثرما يصغي إلى الزبون، والفلاح وراء محراثه يلقي نظرة على الأرض وأخرى على الافق يسائل المجهول عن سره، الصانع يداه عالقتان بما يصنع ، وأذنه بالمذياع، إلى ما بعد منتصف الليل. الطالب يستمع إلى الدرس وهو يتأهب للتظاهر ولتوزيع المنشورات، لا يدري ما إذا كان سيجلس في آخر السنة على مقاعد الصف أم وراء قضبان السجن الحديدية. كل مناسبة صالحة للتعبير عن الاستياء ولمناهضة الاستعمار. ارتفاع سعر الخبز كمعركة ستالينغراد، دفع الاقساط المدرسية كرفض تسليم الجيش للحكومة الوطنية. لم تتجاوز عدد أيام الدوام عام 1942- 1943 إذا صدقت الذاكرة- السبعين، ومع ذلك فالنتائج كانت جيدة وأحيانا ممتازة لأن العقول عطشى للمعرفة كالقلوب للتحرر.

كانت معركة الجلاء قد بدأت منذ زمن طويل، مع الانتداب عام1918...وقبله بكثير منذ أن أدرك العرب أن كل أجنبي يحتل أرضهم مستعمر. تتتسارع مع دخول جيوش الحلفاء في حزيران 1941 أرض سورية لطرد فيشي النازية. والكل يعتقدون، بعد ستالينغراد أنها رابحة طالما أن الشعب قد انتصر بقوته الذاتية في هذه المعركة على اضخم آلة حربية أنشأها الطغيان. وعلى سورية أن تعد العدة لانشاء الدولة العربية الموحدة أنشاء يضع العرب في الطليعة بين الأمم، اليوم كما الأمس. ما سيكون شكل الحكم في هذه الدولة ما الايديولوجيا التي سيستند إليها ؟ ما المقومات التي ستضمن لها البقاء والنمو؟ تلك بعض الاسئلة التي كانت تلقى وتناقش في جو لا يقل حماسة العاطفي عن دقته العقلية.

لم تفكر سورية في يوم من الأيام بذاتها ولذاتها . فان هي بتقسيماتها الادارية والسياسية إلا وجود اصطنعه الاستعمار في عصبة - أو بالأحرى عصابة – الأمم. وإنما الوجود والبقاء للأمة العربية الواحد من الخليج إلى المحيط، ومن فجر التاريخ إلى أن تصبح الإنسانية أمة واحدة .

من أعماق التاريخ العربي تتصاعد الأسئلة لتتركز وتصاغ صياغة عقلية ي حلقات تعقدها قلة قليلة من المثقفين جلهم من اساتذة الثانويات، خرجوا من طبقات الشعب ليعبروا عن تطلعاته فكانوا الاداة التي ربطت بينه وبين الثقافة العالمية.

كان خير ما اقتبسناه إذ ذاك عن فرنسا نظام الشهادة الثانوية بقسميها. وحيث كانت تلقى على الطلاب في القسم الثاني دروس طويلة في كل مذاهب الفلسفة والاجتماع.لم تكن الجامعة السورية قد تكونت بعد. فالمستعمر اقتصر منها على الفروع المهنية كالطب والصيدلة والحقوق.

فكانت الثانويات في صفوفها العليا مركز القلق الفكري والتساؤل ونقطة انطلاق التظاهرات تنتقل منها إلى الجامعة وإلى الجماهير الشعبية. فيوم تعلن الثانوية الاضراب تشل الحركة الاقتصادية في المدن السورية كلها. وربما في الريف. وما ازال أذكر ذلك الجو الرائع الذي كان يسود صف الفلسفة،ففيه كانت تطرح وتناقش كل الاسئلة الحاسمة ما الديمقراطية ؟ ما القومية ؟ ما الاشتراكية ؟ الخ ...شاء الحاكم أم أبى . وبعد ستالينغراد أصبح لهذا الصف، كما للمجالس الثورية، ثلاثة أجنحة: اليمن واليسار، وبينهما الوسط، وأترك لخيالكم تصور الحركة الفكرية التي يمكن أن تنشأ في مثل هذا الجو. أجل كانت سورية وما تزال مركز القلق الفكري في العالم العربي، ففها وضعت أهداف الامة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية- وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، عام 1947 على الضبط ومنه انتشرت في أرجاء الوطن العربي.

فلم كانت سورية، مركز القلق الفكري ؟وكيف تطورت الحركة الفكرية فيها؟ ما الافاق التي فتحتها ؟ كي نجيب على هذه الاسئلة علينا أن نلقى نظرة سريعة على تطور سورية الاجتماعي والسياسي فنتبين بذلك الترابط الديالكتيكي بين الفكر والمجتمع، بين الايديولوجيا ونمو الشعب قوة منتجة.وسيتناول بحثاً في كل مجالات، فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، فالتحول خلال هذه الحرب، فنتائجه بعدها. ذلك أن البعث القومي والاجتماعي واليقظة الفكرية التي رافقته، والتبدل السياسي الذي نجم عنهما كل هذا تم في هذه الفترة من الزمن القصيرة نسبياً. وسنرى أن نقطة التحول تقع على الضبط في فترة الحرب التي وصفناها بأنها فترة قلق فكري .

التحول الاجتماعي:

أن من يلقى نظرة سريعة على سورية الطبيعية (أي على فلسطين ولبنان والجمهورية العربية السورية) يلاحظ أن معظم سكانها مما يمكن أن تسمية بالطبقة المتوسطة، في الحاضر كم في الماضي القريب، وربما البعيد. وهذا ما يميزها عن بقية الاقطار العربية كالجمهورية العربية المتحدة مثلاً حيث كان التفاوت في الثروة، لفترة قليلة خلت من الزمن، كبيراً جداً ولكن لوتجاوزنا النظرة السطحية لنتعمق في دراسة المجتمع العربي، للاحظنا أنه، ككل الشعوب القديمة، معقد التركيب، متشابك البنيات، كل مرحلة تاريخية اجتازها اضافت إليه بنية جديدة تداخلت مع البنى القديمة، شأنه في ذلك شأن الطبقات الجيولوجية في ترسباتها الكثيرة وطبقاتها المتداخلة .

فالمدينة تتألف تقليديا من ثلاث مجموعات سكانية: أولاها : أرستقراطية، تجارية زراعية تلك الحوانيت الكثيرة والمزارع الواسعة في الضواحي وتسيطر على الحركة الاقتصادية.

ثانيها : وهي النواة الاساسية الصلبة أن مع التعبير-اصحاب المحلات التجارية العادية يضم اليهم الحرفيون،

ثالثها: كتلة سيديمة غائمة من الصناع والمستخدمين والباعة المتجولين وسكان الآرياف الذين يفدون إلى المدينة طلباً للرزق.

إلى جانب هذا النظام الاقتصادي وفي ثناياه، نظام آخر يقسم المدينة إلى أحياء وأسر وطوائف دينية يسيطر عليها وعلى الحياة الاقتصادية الاغنياء من الأسر الكبيرة يحركون السوق تبعاً لمصالحهم الاقتصادية، وأداتهم في ذلك رجال يعيشون على موائدهم ويأمرون بأمرهم.

أما الريف فيتألف من قسم اقطاعي يتسم بكل سمات الاقطاعية المعروفة، وقسم جله من صغار الملاكين وقسم ثالث فيه الملكية مشاعة.

ولقد كان هناك تحالف طبيعي بين الاسر الاقطاعية في الريف والأسر التجارية-الزراعة في المدينة ومن الطبيعي أن يكون هذا التحالف على حساب بقية السكان. وتغطي هؤلاء وأولائك عادات وتقاليد ترقى إلى قرون، فهي صارمة تجبر الفرد على التقييد بأحكامها، وذاك نظام دقيق يعيق حركة التحرر.

لم يكن هذا النظام عربياً لا في أصله ولا في بنيته بل تكون خلال الحكم العثماني الطويل وورثه الانتداب عنه وأبقاه على ما هو عليه لأنه يخدم مصالحه. فالعقلية التي سيطرت إذا بين الحربين كانت مزيجاً عجيباً من عقلية البرجوازية الصغيرة والعقلية الاقطاعية والعقلية العشائرية .ولكن إذا ما تخطينا هذه الترسبات التاريخية . نجد وراءها وقبلها، في أعماق النفسية الاجتماعية القيم العربية في استقامتها وشجاعتها ونبالتها وفرديتها. وهذه القيم هي حقيقة المجتمع العربي والدافع العميق الذي كان يهيب به دوماً نحو التمرد.

كانت الحياة الاقتصادية تتراكم أيام الحكم العثماني، حول محورين متكاملين: الزراعة الاقطاعية وتجارة للترانزيت فسحتها الامبراطورية العثمانية. و الاقطاعية من أصل أجنبي توطدت أيام الحكم العثماني لأن كبار الملاكين مستعربون لا من اصل عربي. أما التجارة فعريقة في سورية وعند العرب.إلى جانب الفروسية.ولقد كان هناك تحالف طبيعي بين الاقطاعيين والتجار من جهة والحكم العثماني من جهة ثانية .

ويستمر هذا التحالف أيام الانتداب الفرنسي لأنه من طبيعة الاشياء كما يقال. ولكن ثمة عامل جديد جعل التجار يتمردون على الحكم الفرنسي، هو الحصار الذي فرضه على الاستعمار الفرنسي الاستعمار الانكليزي الذي لم يرضى بوجود فرنسا في منطقة غنية بمواردها الطبيعية وخاضعة في معظم اقطارها لنفوذه. وصاية وحماية واستعمار مباشرا.فلم تعرف سورية الاستقرار ولا سنة واحدة في أيام الانتداب الفرنسي، إ كانت بورجوازيتها تضيق ذرعاً بالحدود والقيود التي فرضها عليها الانتداب. وكان بعض محشديها يرغبون بالتحالف مع انكلتر.

وتتبدل الاوضاع القائمة تبدلاً جذرياً أثناء الحرب العالمية الثانية عندما احتلت جيوش الحلفاء سورية لتطرد منها جيوش فيشي المتحالفة مع النازية، إذ أن الذي قاد الحملة على فيشي هو بالدرجة الأولى الاستعمار الإنكليزي لاعتقاده إذ ذاك أنه سيستقر نهائياً في المنطقة، فيفك الحصار الاقتصادي عنها، ويصبح بإمكان التاجر السوري أن يمارس عملياته التجارية في رقعة من الأرض واسعة.

في تلك الفترة بالذات برزت إلى الوجود ظاهرة جديدة كان لها تاثير حاسم على مصير سورية، إلا وهي نشوء الصناعة الكبيرة وبالتالي نشوء البورجوازية وطبقة البروليتاريا بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين.قلنا أن الاستعمار الانكليزي اعتقد أنه حصل على ما كان يحلم به منذ سنوات ألا وهو ضم سورية إلى مناطق نفوذه العديدة في المنطقة. ولكن الامبريالية الامريكية كانت له بالمرصاد، فسرعان ما مدت يدها لكبار التجار و أمدتهم، عن طريق نظام الكوتا، بالدولارات وسرعان ما تلقى هؤلاء المساعدة بطيبة خاطر وشرعوا بإنشاء صناعة محلية كانت المنطقة بأشد الحاجة إليها. وهكذا تحول التاجر القديم وأحيانا الاقتطاعي التقليدي إلى صاحب معمل بوسعه أن يتحالف مع الرأسمال الأجنبي ليسيطروا معاً اقتصاديا وسياسيا على المنطقة .

في تلك الفترة خرجت سورية من جمود فرضتها عليها تقاليد اقطاعية وعشائرية وطائفية كما فرضة عليها الاستعمار الطويل،لتصبح مجتمعاً حديثاً ظهرت فيه بوادر الصراع الطبقي.

ولكن الذي لم يكن بالحسبان المستعمر وشريكه البورجوازي هو انتشار الافكار الاشتراكية الثورية بين المثقفين والعمال، ومساندة الاتحاد السوفيتي لهؤلاء كما سنرى. فالكشف عن البعد الاشتراكي للمسألة الاجتماعية هو الذي مهد الطريق عبر الانقلابات وتجربة الوحدة، للبدء في التحويل الاشتراكي بعد الثامن من آذار.

التحول السياسي :

قلنا أن فترة الانتداب الفرنسي كانت فترة عدم استقرار على كل المستويات وفي كل المجالات، فلم تمر سنة إلا وشهدنا فيها حدثاً سياسياً هاماً. فلم كان عدم الاستقرار هذا ؟ كان بسبب الصراع الذي دار على ثلاث مستويات: الأول بين المستعمرين انفسهم، الثاني بين البورجوازية الوطنية والانتداب، الثالث بين الشعب والاستعمار ذاته وبغض النظر عن اشكاله وعن الازياء التي تزين بها.

انبثقت سورية السياسية أو سورية الدولة عن المنارات الاستعمارية التي حصلت ضمن عصبة الامم وما سبقها ورافقها وعقبها من معاهدات دارت كلها حول اقتسام التركة العثمانية . أما سورية القومية العربية فانبثقت من الثورة العربية التي اعلنها الشعب العربي بلسان الشريف حسين على العثمانيين،، وما سبقها ورافقها وعقبها من حركات وطنية كانت ترمى كلها، عبر المنارات السياسية إلى إعلان الدولة العربية الموحدة، لقد قبلت سورية الرسمية الانتداب على أنه مرحلة مؤقتة ستؤول إلى الاستقلال الوطني. أما سورية الشعبية فرفضت الانتداب والتجزئة جملة وتفصيلاً ومنذ

اللحظة الأولى، وعبرت عن رفضها هذا بالتمرد والثورات المتعاقبة ولكنها لم تتمكن إذ ذاك من التعبير عن مطالبها الحقيقية تعبيراً عقلياً يرتب الوسائل بالنسبة للغايات، كما أنها لم تتمكن من الكشف عن حلفائها الطبيعيين في معركة التحرر والاستقلال.

من المعلوم أن البورجوازية الوطنية هي التي تقود في بلدان العالم الثالث الثورة التحررية ولكن من المعلوم ايضاً أن البورجوازية الوطنية عاجزة عن المضي في هذا الطريق حتى نهايته إذ أن مصالحها مرتبطة لحد بعيد بمصالح الرأسمالية الاممية. ولقد رضيت البورجوازية الوطنية في سورية بالقليل القليل. فمعاهدة 1936 التي قبلت بها ورفضتها بالنتيجة فرنسا، كانت بمثابة تكريس قانوني للاستعمار الفرنسي. ولكن فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها وبعدها كانت تريد الحكم المباشر بينما كان الشعب يطالب بحلول جذرية .

ولما حقق الشعب الجلاء في السابع عشر من نيسان 1946 كانت المنارات الاستعمارية ما تزال على ما هي عليه، لا بل ازدادت ضراوة بعد أن تبين للجميع أن المناطق العربية المجاورة لسورية، وأن سورية ذاتها غنية بالنفط غنى لا حد له . فكانت الانقلابات العسكرية، كل منها لصالح أحد المعسكرات الاستعمارية. وكانت الانظمة السياسية في سورية المستقلة شكلاً، تتأرجح بين الديكتاتورية والبرلمانية .

ولقد خاض الشعب العربي في سورية بعد الحرب العالمية الثانية معارك ضارية ضد الاستعمار أصبحت معروفة لدى الجميع، وكانت الامبريالية الامريكية هي الطرف الثاني الحقيقي فيها بينما كان الطرف الأول هو الشعب، ومن هذه المعارك معركة 1948 ضد الصهيونية ومعركة حلف بغداد ومعركة العدوان الثلاثي عام 1956 .

ويفهم الشعب بالنتيجة أن الاستعمار كل لا يتجزأ، وأن الثورة يجب أن تكون جذرية أولاً تكون، فالتحرر السياسي وهم إذا لم يدعمه التحرر الاقتصادي والتحرر الاقتصادي لا يتحقق إلا إذا استلم الشعب زمام المبادهة في نظام اشتراكي يدعمه المعسكر الاشتراكي.

<u>التحول الفكري</u> :

نشأ الفكر العربي في سورية بعيد الحرب العالمية الأولى، ونما متفاعلاً باستمرار مع الاحداث السياسية والاجتماعية المحلية والعربية والعالمية. وقلما استرسل مع الرومنتيكية العاطفية، كما أنه قلما اهتم بالأبحاث الاكاديمية المجردة. وفي هذا سر قوته ونقطة ضعفه. ويعرف المدرسون من تجربتهم اليومية أن الطالب العربي السوري لا يعير انتباهه، كل انتباهه حتى في أعلى صفوف الجامعة إلا للمشكلات الاجتماعية والسياسية، يتساءل باستمرار عن نتائجها ومعناها. ذلك أن المثقفين السوريين في

أكثريتهم الساحقة من أبناء الشعب قد نما التعليم في سورية بنمو الوعي الشعبي.فابناء البرجوازية السورية يهجرون في سن مبكرة مقاعد الدراسة لينصرفوا إلى أعمال أهلهم التجارية. وإذا تخصصو وهذا ما يحدث نادراً – فهم يدرسون في البلدان الأجنبية،تاركين المدرسة السورية لأبناء الشعب. وكذلك أبناء كبار الملاكين، فهم يعنون بالدفاع عن أملاك أهلهم، ضاربين عرض الحائط بمصالح الأمة والشعب ولقد شهدت البرلمانات السورية نواباً اقطاعيين وبرجوازيين جهلة أوصلتهم إلى كراسي الحكم أموالهم لاكفاءاتهم الشخصية ولا نضالهم الوطني .

ولهذا لعب الطلاب في معركة التحرر، هم وأساتذتهم، دوراً أساسياً،لا بل دوراً حاسماً فلاحزاب العقائدية نشأت، أول ما نشأت، من تجمعات الطلاب والأساتذة ومن مناقشاتهم.أما الاحزاب التقليدية، فقد شكلها كبار الملاكين وكبار التجار للدفاع عن مصالحهم، والطلاب هم الذين حركوا الجماهير الشعبية حتى اجبرت البرجوازية على خوض معركة الجلاء عام 1946 ، ومظاهرات الطلاب هي الي اجبرت الحكم البرجوازي عام 1954 على رفض حلف بغداد. وهؤلاء الطلاب وقد تكونت أفكارهم في النضال لا من الكتب هم الآن،وبعد أن انهوا تحصيلهم العالي قادة معركة التحويل الاشتراكي فلنلق نظرة سريعة على منطلقاتهم النظرية وما طرأ عليها من تحول.

أ- **العروبة منطلقاً :**

كانت العروبة أو الفكرة العربية وما تزال وستبقى لزمن طويل المنطلق الاساسي لكل فكر سوري صادق وأصيل ظهرت هذه الفكرة، أول ما ظهرت، على ما يبدو في فجر النهضة العربية الأولى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتؤكد تميز العرب عن الاتراك وعن مجموعة الشعب التي تضمنها الامبراطورية العثمانية. وترسخت في أوائل القرن العشرين عندما حاولت تركيا احلال لغتها محل اللغة العربية في المدارس، أي عندما حاولت تتريك العرب ومن المعلوم أن العرب حرصوا بأكثر ما حرصوا خلال تاريخهم الطويل، على لغتهم فدرسوها في أدق دقائقها ووضعوا قواعدها، وميزوا بين مختلف معاني كل كلمة من كلماتها، المعاجم العربية – وتعد الاساسية منها بالعشرات، منها المختص ومنها العام – خير شاهد على ما تقول. ولقد بدأت النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر بالرجوع لهذه اللغة في اصالتها وقوتها البيانية رجوعاً يؤكد قدرتها التعبيرية وتفوقها على بقية اللغات. وكان مركز النهضة سورية الطبيعية اي ما نسميه اليوم في المصطلحات والأطر السياسية الزائفة التي فرضها الاستعمار (لبنان وفلسطين وسورية الحالية) ،ولكن سورية هذه، لم تفكر في الماضي ولن تفكر في المستقبل بذاتها لأن منطلقها من الأساس عربي وسيبقى

عربياً. كانت العروبة إذ ذاك شعراً وأدباً ولغة، أو فكراً يؤكد أكثر مما يحلل، ويدل على الهدف أكثر مما يربط بالوسائل بالغايات.

ولآن، وبعد قرابة قرن على النهضة الأولى مانزال نسأل ونتساءل عما هي العروبة. أذكر شخصياً، فيم اذكر، أن مستشرقاً فرنسياً معروفاً ألقى في باريس 1960 مجموعة محاضرات عن المشاكل العربية، أمام جمهور كبير من الفرنسيين والعرب.وفي خاتمها تطرق إلى حزب البعث العربي الاشتراكي فقال بلهجة المتسائل المستنكر ما خلاصة : هذا الحزب ما يبرح يتحدث عنَ العروبة (Arabisme) فما هي هذه العروبة وما المذهب السياسي والاجتماعي الذي تدلل عليه؟ انهم لم يحددو، ولن يتمكنوا من تحديده.

في هذا التساؤل تلاعب بالالفاظ والمعاني يدل على سوء نية، فقد ترجموا (عروبة) (Arabisme) وبـ : (Pau Arabisme) على غرار (pau Cermanisme) النازية ليقولوا أن العروبة ضرب من ضروب الفاشية الجديدة. وألقي على هذا المحاضر المحترم السؤال التالي : لو أسموا فرنسا بـ (Frarnsbisme) أو (Frarnsbisme Pau) وطلبوا منك أن توضح المذهب السياسي او الاجتماعي أو الفكري الذي تنطوي عليه الكلمة فماذا تجيب؟

ويسود القاعة صمت مربك، ويحاور المحاضر في أمره فأقول: العروبة ليست (Arabisme) وليست مذهباً سياسياً أو اجتماعياً او فكرياً، دائما هي تأكيد لوجود اجتماعي، تاريخي، ثقافي ذي هوية اجتماعية معينة.

أن العروبة هي المصير العربي، وعلينا نحن العرب في سورية وفي غيرها من الاقطار العربية أن نستجلي أبعاد هذا المصير على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، على المستوى العملي والنظري، بآن واحد كي نتمكن من تأكيد وجودنا أمة لها دورها الأساسي في الحضارة العالمية.

والواقع أن الفكرة العربية ماتزال منذ أن وجدت، تفجر من الداخل الوجود العربي لتكشف عن حقيقته العميقة، لا في الأطر السياسية التي اصطنعها الاستعمار،ولا في الطبقات التي أوجدها لتخدم مصالحه بل في صميم الشعب العربي العامل.

أن العروبة هي النمطلق الأول والأساسي لكل فكر عربي صحيح وهي الهدف أيضاً لأنها تعبر عن حقيقة وجودية وإنسانيه وهي التي وجهت النضال العربي ضد كل أنواع الاستعمار ومكنته في غمرة المعركة من الكشف عن حقيقته .

وسأحاول الآن، ضمن المخطط الذي رسمته لنفسي أن أكشف عن المراحل التي مر بها الفكر العربي في سورية في محاولته لجعل العروبة حقيقة واقعة، وهذه للمراحل هي ثلاث كما قلنا:

ب-**الحريات السياسية مطلباً أولاً** :

بدأت العروبة أول ما بدأت مطلباً سياسياً يقوم على مناهضة الاستعمار العثماني ومن ثم الفرنسي وعلى تأكيد الوجود العربي في أصالته الأولى تأكيداً شعورياً عاطفياً مضمونه غائم. وما أن بدأ الانتداب وبدأت معه التجزئة والاستغلال الاقتصادي المنظم (إذ أن الاستعمار العثماني كان في أواخر عهوده، فوضوياً لحد بعيد) حتى بدأت تتوضح الابعاد الأولى للفكرة العربية فهي :

1- الحريات السياسية بكل أشكالها: حرية الفكر، إنشاء الاحزاب والجمعيات الخ....
2- المطالبة بوضع دستور يضمن للدولة سيادتها. ولقد تضمنت كل الدساتير ومشاريع الدساتير التي وضعها السوريون مادة خاصة تؤكد عروبة سورية وكونها جزأ لا يتجزأ من الدولة العربية الكبرى.
3- سيادة القانون، وانبثاقه عن الشعب الممثل في نوابه ومنظماته الحزبية. كانت سورية عملياً في أيام العثمانيين قد انطوت على ذاتها وتجزأت إلى وحدات طائفية وعنصرية ومذهبية وعائلية، لكل منها مصالحها الخاصة، لا بل بلغت التجزئة حداً لا يمكن أن يتصوره إلا الذي عاشه. فدمشق مثلاً كانت في الواقع مجموعة أحياء لا يربطها ببعضها إلا رقعتها الجغرافية .وكانت إرادة السلطان وحدها هي العنصر الموحد. وفي أيام الانتداب حلت إرادة السلطان. واتخذت التجزئة شكلاً رسمياً فقسمت سورية إلى أربع دويلات : وأصبح لبنان دولة مستقلة وسلمت فلسطين للانتداب الانكليزي الذي جعل من قسمها الغربي وطناً لليهود. ويشعر السوريون بأن أول ما عليهم أن يحققوه هو إنشاء رابطة المواطنة للقضاء على الطائفية والعنصرية، الخ .... والمطالبة بسيادة القانون لمناهضة أهواء الحاكم وعملائه في الداخل .
4- حقوق الإنسان ومن المعلوم أن هذه الحقوق هي أساس الدستور والقانون ورابطة المواطنة في الدولة البورجوازية الليبرالية.

ومن الواضح أن هذه المطالب تبلورت تدريجياً بتأثير افكار الثورة الفرنسية. ولقد كان لأفكار هذه الثورة وقيمها أثر كبير في النهضة العربية منذ فجرها الأول وبشكل خاص أيام الانتداب .

فمن يراجع الآن ما كتب إذ ذاك في الأدب والفكر يلاحظ بما لا يترك أثراً للشك، تأثير روسو وفولتير وديدرو والموسوعيين، ومن ثم مع تغلغل نفوذ فرنسا